نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

عاش الجرجاني في القرن الخامس الهجري، وقد امتاز هذ القرن بحركة علميّة كبيرة حيث نضج التأليف والإبداع وتكاملت فيه علوم اللسان العربيّ على اختلافها نحوا وبلاغة ونقدا. فألفت الكتب الأدبية والعلميّة، وطهرت المعاجم بشكل أوسع، وجمعت الدواوين الشعريّة، وبرزت الطوائف المختلفة من المتكلمين - معتزلة وأشاعرة - فاجتهدوا في معالجة القضايا المطروحة بالعقل والمنطق، واشتدّ الصراع بينهم حيث دافع كلّ فريق عن آرائه ضدّ خصومه بحريّة وتفان. ولد في جرجان وهي بلدة واقعة في شمال إيران بين طبرستان وخُرسان، وتتلمذ على أستاذه أبي الحسن محمد بن الحسين بن عبد الوارث النّحوي ت 421 ه، فألّف كتابين لا يستغني عنهما باحث في علوم العربية هما دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

أسباب تأليف الجرجاني لنظرية النظم

أراد عبد القاهر بكتابه- دلائل الأعجاز - التأسيس لعلم جديد استدركه على من سبقه من الأئمّة الذين كتبوا في البلاغة وفي إعجاز القرآن. فمن الأسباب التي جعلته يؤلّف في النظم

- الردّ على إمام المعتزلة - صاحب كتاب (المغني) - القاضي أبي الحسن عبد الجبّار. الذي كان يرى أنَّ "المعاني لا

تَتزايد، وإنما تتزايدُ الألفاظُ" ويرى أيضا أنّ "الفصاحةَ لا تَظْهرُ في أفرادِ الكلماتِ. وإنما تَظْهرُ بالضمِّ على طريقةٍ مخصوصةٍ" ، ووجد الجرجانيّ في ذلك فسادا، على الرغم من أنّ أصحابه من ذوي النباهة وعلو المنولة

- الصراع بين الثقافات وتعصب كل قوم لثقافاتهم، كتعصّب اليونان لفلسفتهم ومنطقهم، والفرس لفارسيّتهم،

ودفاع العرب عن تراثهم وثقافتهم ومنها البلاغة والنحو، ولعل مناظرة السيرافي ليونس بن متى حول المنطق والنحو

- تفشي الإلحاد في المجتمع الإسلامي في العصر العبّاسي؛ حيث شكّكوا في القرآن والإعجاز فيه
- الخلاف بين النحاة والذي أدى إلى التركيز على المسائل النحويّة التي ولّدت مدارس لها قواعدها التي ركّزت على مسائل دقيقة ونجم عن ذلك زهد الناس في النحو،

النظم عند الجرجاني

هو "القطْبُ الذي عليه المَدارُ، والعَمودُ الذي به الاستقلال.

فليس "إلا أن تضع كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ (علمُ النحو)، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها.

في توضيحه لعمليّة توخّي النحو ووضع الكلمات مكانها يقول: "وذلك أنَّا لا نَعلم شيئاً يبتغيهِ الناظمُ بنَظْمه غيرَ أنَ ينظرَ في وُجوهِ كلَّ بابٍ وفُروقهِ، فينظرَ في "(الخبرِ) إلى الوجوهِ التي تَراها في قولك: (زيدٌ منطلقٌ) و (زيدٌ يَنطلِقُ)، و (ينطلِقُ زيدٌ) و (منطلِقٌ زيدٌ)، و (زيدٌ المُنطلِقُ) و (المنطلِقُ زيدٌ) و (زيدٌ هوَ المنطلقُ)، و(زيدٌ هو منطلِقٌ

- "(إنْ تَخْرُجْ أَخرجْ) و (إنْ خرجْتَ خرجْتُ) و (إن تخرجْ فأنا خارجٌ) و (أنا خارجٌ إن خرجتَ) و (أنا إنْ خرجْتَ خارجٌ)"

- الحروف "التي تَشْتركُ في معنىً، ثم يَنفردُ كلُّ واحدٍ منها بخصوصيةٍ في ذلك المعنى، فيضع كلًا من ذلك في خاصِّ معناهُ، نحْوَ أن يجيءَ بـ (ما) في نفي الحال، بـ (لا) إذا أراد نفي الاستقبال ، بـ (إنْ) فيما يترجَّحُ بينَ أن يكونَ وأنْ لا يكون، وبـ (إذا) فيما عُلِمَ أنه كائنٌ

- معرفة موضع الفصل والوصل في الجملة ومتى يكون الوصل بالواو ومتى يكون بالفاء، ومتى يكون بالفاء أو ثمّ، ومتى يكون الوصل بـ (أو) ومتى يكون بـ (أم) والفرق بين موضع (لكن) وموضع (بل)، كما أنّ المعنى يختلف باعتماد "التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كلِّه، وفي الحذف، والتكرار والإضمار، والإظهار، فيصيب بكلّ من ذلك مكانَه

تجدر الإشارة إلى أنّ الجرجاني عاش في عصر كثر فيه الجدل والتعصب إلى المذاهب وقد عبّر الجرجاني عن آرائه البلاغيةّ في إطار جدليّ فنّد من خلاله آراء خصومه التي عدّها خاطئة ودافع عن نظريّته التي يراها صحيحة بطريقته الخاصّة من أجل إدراك أسباب البلاغة والاهتداء إلى دلالتها؛
فالمعتزلة وعلى رأسهم القاضي عبد الجبار ت 415 ه يرون أنّ "الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنّما تظهر بالضمّ على طريقة مخصوصة، ولا بُدّ مع الضم من أن يكون لكل كلمة ابتداء، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضعة التي تناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام رابع؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتناق في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه، إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها.
- "لا يَصِحُّ أن يُرادَ به النطقُ باللفظةِ بعْدَ اللفظةِ، مِنْ غيرِ اتصالٍ يكونُ بين معنييهما؛ لأنه لو جازَ أنْ يكونَ لِمجرَّدِ ضَم اللفظِ إلى اللفظِ تأثيرٌ في الفصاحةِ، لكانَ يَنبغي إذا قيلَ: "ضَحِكَ، خَرَجَ" أنْ يَحْدُثَ في ضَمِّ "خرجَ" إلى "ضحكَ" فصاحةٌ! وإذا بطَل ذلك، لم يَبْقَ إلا أنْ يكونَ المعنى في ضمِّ الكلمةِ إلى الكلمةِ توَخِّيَ معنًى من معاني النحو فيما بينَهُما
- ثنائيّة اللفظ والمعنى قد ظهرت قبل عصر الجرجاني في جوّ إعجاز القرآن أإعجازه في اللفظ أم في المعنى، أم في كليهما، ثمّ انفصلت عن الإعجاز على يدي بعض النقّاد وعلماء النحو من أمثال الآمدي ت 370 ه وأبو الحسن القاضي الجرجاني ت 392 ه ابن جنّي ت 392ه ليعيدها الجرجاني عبد القاهر إلى الإعجاز من جديد رافضا بشدّة الفصل بينهما مؤكّدا على أنّ العبرة ليست بالعبارات إنّما بمدلول العبارات، ولا بدّ من اشتراط القواعد النحويّة ومعانيها في الربط بين اللفظ والمعنى
- يرفض الجرجاني من يرى الفصاحة في "التلاؤمِ اللَّفظيّ، وتعديلِ مِزَاجِ الحُروفِ حتى لا يتلاقى في النُّطقِ حروفٌ تَثْقُلُ على اللسَان" ومن ثم يرفض رأي الجاحظ في حديثه عن قول الشاعر (وقرب قبر حرب قبر) وغيره
- لا يرجع الجرجاني الفصاحة والبلاغة إلى اللفظ وإنّما إلى النظم وكيفية صياغة الجملة وصورتها أمام السامع